بسام يكتب عن غسان ولميس

هذه المفكرة وجدت بعد يومين من انفجار الطرد الذي ادى الى جرح الرفيق بسام ، بين بضعة اوراق متناثرة اخرى .. كان يهيؤها للعدد الماضي من « الهدف » .
وننشرها اليوم دون اي تغيير سوى الاسم المستعار الجديد الذي كان بسام قد اختاره ليبدا باستعماله للمرة الاولى ..

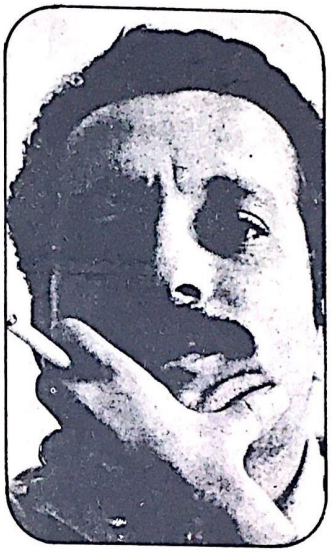

لميس نجم .. عروس زفت يوم استشهدت

ما كنت اتصور انك ستزفين لفلسطين يوم الثامن من تموز ..

ما كنت اتصور ان موكب زفافك سيكون موكب الجماهير التي ودعت غسان وعاهدته ..

ولكنك زفت .. في الثامن من تموز دون ضجة وصخب .. سوى ضجة وصخب وداع خالك غسان ..

ولكنني احسست ، رغم معرفتي البسيطة بك رغم بعدك عني وعنا ..

احسست باحساس غسان الحي . فقد كنت اعرف من هي لميس لغسان وما هي مكانة لميس من قلب غسان ، من ادبه وحنوه على الانسان .. ويوم ان قالت والدتك ضعوا اكليلا فوق نعشها قلت في نفسي ليس من داع .. فالموكب يكفي والبيت يكفي .. كلها علائم عرس .. من اجمل الاعراس .

خجولة ، صامتة تلك السمراء التي زفت يوم الثامن من تموز ، الا بحضور غسان . كانت تستمد منه قوة وجراة تماما كما استمد منها الشهيد وحيا وحبا وحنينا .

فلسطينية العينين وليس المولد . فلسطينية الاصل مستقبلته . ولكنها كانت مشردة . ولدت مشردة وعاشت كذلك ولكنها استشهدت عائدة .. ربما الى حيفا .. ربما الى عكا فقد كان غسان يحبها ويستلهم من حزن عينيها حزن برتقال فلسطين .

فائزة كانت اساس هذا الحب . فهي حب غسان الاول .. اخته .. التي عرفت في سبيل العائلة التي ناضلت من اجلها دون كلل او تاقف ..

مناضلة حقيقية كان يقول .. هي « النبع والمصب » .. وهي التي اهدى اليها غسان انتاجه الاول .

لقد قوي بصر غسان على مراى « فائزة » وهي تكد وتعرق في سبيل العائلة .. روح التضحية التي جعلت العائلة تفمس من عرقها بعد عام ١٩٤٨ . ومع نمو التضحية تعمقت النقوش في عروق غسان الشفافة ملحمة لازمته طوال حياته .

كان قادرا على استخلاص الكثير من الاشياء الصغيرة فكيف بهذه الاشياء .. بتضحيات « فائزة » .

كتب لها اول ما كتب دون علانية . واهدى لها اول ما كتب علنا ..

حب غسان للميس مستمد من حبه لفائزة .

وللميس كتب غسان كما لم يكتب .. من اجلها كان يفعل الكثير ومستعد لعمل الكثير .. اسالوها عن هذا ..

وابى الا ان تزف لميس بوجوده . ليفرح بها .. وزفت لميس بموكب رفع صور غسان .. هكذا تكون ازهى المواكب .

ذروها الثرى قربه وبقيت صورته ترفرف فوق ضريحها فقد ابقاها تحت جناحيه وستبقى خالده خلود جناحيه . وهذا احلى الذكر .

لميس نجم .. ارتبط اسمك بغسان كنفاني .. فقد كنت عزيزة عليه ومن بعد فانت عزيزة علينا . وعندما نخلد غسان وذكراه فانما نخلد ذكراك وحبه لك . اراك تبتسمين قريرة العين قرب من كنت قريبة الى قلبه . حق لك ذلك . فالثامن من تموز كان يوم زفافك لفلسطين و .. الموكب كان ازهى المواكب و .. رفيق الطريق كان بطلا شامخا ..

يوم الجمعة ٧ تموز ١٩٧٢

حضرت الى مكتب الهدف في الصباح كعادتي من كل يوم . العمل في اعداد « الهدف » قد انتهى والصباح قضيناه في انتظار نتيجة جهد الاسبوع واعمال اخرى كان من عادة غسان ان يتلقف اول عدد يصل الى ايدينا من المطبعة ويبدا بتشريحه : الاخراج ! الاخطاء المطبعية ! واللغوية ! .. ثم يسجل الملاحظات على « عدده » ليطرحها في اجتماع اسرة « الهدف » ولكنه لم يفعل سبت الثامن من تموز . قال لي اشعر بفخر عندما ارى عددا كاملا مثل هذا ! كان حساسا جدا تجاه كل « هدف » تصدر . كان يرى فيها طفلا جديدا يحبوه ويرعاه ويتالم اذا راى فيه نقص او عيب او تشويها . واذكر تماما كم تالم عندما صدر قرار انقاص صفحات « الهدف » الى ١٦ صفحة . كان اهتمامه « بالهدف » كاهتمامه بفايز او بليلى .

□ □ □

قلت له « طالما انك راض عن « الهدف » اظن انك سترافقنا الى عين الحلوة للغداء . فاوما بالايجاب . فقد كنا مدعوين للغداء في عين الحلوة لدى احد الاصدقاء ولم يكن غسان متاكدا من ذهابه .

دلفنا الى « الاوستن » البيضاء وبدات رحلتنا الى عين الحلوة . وكعادته تطرق الى مواضيع عديدة . كان غنيا بالمواضيع .. غنيا جدا . يطرقها بسخرية وبجدية وباشتياق . كان نهما ، في اختيار المواضيع وطرقها .

تحدثنا عن رحلة سابقة الى طرابلس استعملنا فيها نفس السيارة ولكن باوضاع اقل صحة من اوضاعها في هذه الرحلة . فقد كانت الدواليب الخلفية ترقص عند منعطفات طريق طرابلس مما اضطرنا للسير ببطء وقتها . كان يضحك وهو يقول لي : « لم اخبركم آنذاك ولكن كدنا ان « نتدهور » عدة مرات » .

تناولنا الغداء في جمع من الاصدقاء كان خلالها غسان كعادته « ملك » الجلسة (وكلمة ملك محببة لغسان) وتناولنا المنسف .

وجلسنا ننتظر القهوة وتحدث الجمع وحدثنا غسان عن زيارته الى الصين . وعن افتقاده للذباب قال : « لم ار خلال زيارتي للصين ذبابة واحدة الا في مكتب القنصل البريطاني عندما ذهبت للحصول على فيزا لهونغ كونغ .

وحدثنا عن تقدم علم استخدام الابر الصينية بالعلاج . تطرق لبعض الامراض التي كان يعاني منها . فقال : « حاولت ان اداوي نفسي من داء النقرس ولكن الطبيب المختص ابلغني ان الابحاث لم توصل الى طريقة لمعالجة النقرس . وعرضوا علي مداواة مرض السكري بتناول حبوب فقلت لهم ان الحبوب التي اتناولها في بيروت اوفر من تلك التي ساستوردها من هنا » .

ثم حدثنا عن كيفية معالجة الاوجاع والتخدير والتنويم بواسطة الابر . فقال ان اطباء الصين لا يستعملون المخدر العادي بل يستخدمون الابر الرفيعة جدا لتخدير الاشخاص فتفرز الابر في مراكز تجمع الاعصاب وتبقى بارزة من مكان آخر وبما ان الالم هو عبارة عن اشارات يتلقاها الدماغ عبر الاعصاب صادرة عن مكان الوجع فان اشارة الالم تذهب عبر الابرة خارج الجسم بدلا من الدماغ فلا يحس المريض بالالم . بل يهتز طرف الابرة عوضا عن ذلك .

والان يحضرني كلامه عن الالم وانساءل ترى هل تالم غسان . لقد كان الانفجار اسرع من الاشارات المرسلة للدماغ .

□ □ □

انتهينا من الغداء ودلفنا الى الاوستن البيضاء مرة اخرى وسابقنا الطريق الى بيروت . حدثنا خلال العودة عن والده وكيف تزوج مرة اخرى منذ فترة قصيرة وكيف ان « عم » فايز وليلى اصغر منهما بسنين . وتحدث عن جده عندما عرضوا عليه الزواج من ارملة في اواسط الاربعينات من عمرها لكي تقوم على مساعدته والاهتمام به (وكان في السبعينات) فرفض جده . وقال : « هيك هيك بدنا نتزوج فخليها زواجة محترمة . اذا كان ولا بد بدي « فلانة » . » وفلانة كانت في اواسط الثلاثينات جميلة الوجه والقوام .

ثم حدثنا ان جده عاش طويلا . وانه « اثناء غارة شنها الطيران الالماني دمر البيت الذي ينام به جدي » (وكان معمرا آنذاك) وسارع الاهل الى البيت المدمر ليكتشفوا ان دولاب الثياب قد وقع على سرير الجد ذي الاربع قوائم فحمى الدولاب الجد من الحطام المتساقط . وانه بقي نائما دون اذى .

كان يتكلم عن الحياة والموت .. وان اجداده كانوا يعمرون طويلا .. ترى هل كان يدري ..

رسالة عزاء من صديق .. تغرّب !

لن اكتب لك عن الحزن لفقدان غسان .. فهو سر القلب الذي يهمس به للظلام في الليالي الباردة .

ولن اكتب لك عن اللوعه لفقدان غسان فهي لوعة اعلم انك اكثر الحسين بها .

ولن اكتب لك معزيا لاني اعرف ان غسان ما ارادنا يوما ان نكتب معزين باستشهاده .

ولن اكتب لك مشجعا على احتمال الالم فالالم اكبر من الاحتمال .

ولن اكتب لك عن النضال فانا ابعد ما اكون عنه الان ..

ولن اكتب لك عن الثورة فالثورة اعمق من اي كلمة تلقى جزافا في معانيها .

ولن اكتب معزيا للرفاق فمن عرف غسان يعرف ان العزاء هو الانتصار .

ولكني اريدك ان تضع زهره على قبر غسان وان تطبع قبلة على الحجر الذي يحمل نعيه وان ترسل لي حفنة من التراب الذي يواريه .. فالغربة موحشة والاغتراب اوحش وما من دفء سوى دفء النضال والاحساس بما تحس به الجماهير .. فالى ان احس بالدفء سيبقى تراب غسان يشدني .